اعتمدنا في إعداد هذا الموضوع على عدد من المقالات التي نشرها الشيخ عبدالله علي الحكيمي في صحيفة «السلام» التي كان يصدرها أثناء حياته في مدينة كارديف البريطانية.. وأهمها: «التصوف في عقيدة المسلمين» (عام 1950م)، «العلويون في الميزان» (عام 1950م)، «ما هو التصوف» (عام 1950م)، «التصوف – العلم» (عام 1952م)، إضافة الى مقال مخطوط لم ينشر، بتوقيع الشيخ الحكيمي، آملين تعميم الفائدة من ذلك.

د. خالد سعيد (1-3)

مفهوم التصوف عند الشيخ الحكيمي

● الشيخ عبدالله الحكيمي

يبث شيوخ الصوفية علومهم بإحدى طريقتين أو بكلتيهما معا وهما الكتابة في سطور المؤلفات، أو النشر في صدور الرجال، ولقد اعتمد شيخنا المبارك الطريقتين معاً، حيث ألف الكتب وحرر صحيفة السلام، وقام كذلك بفتح الزوايا ولقن المريدين أوراد الطريق وأشرف على تربيتهم.

غير أن الموضوعات التي ركز عليها في كتبه كانت منصبة على إزالة الغبار والصدأ الذي تراكم على فهم الناس – مسلمين وغير مسلمين– حول عديد من القضايا الحياتية، وبدا للناس قصور المعالجة الدينية الإسلامية لها، ومن ثم بدت نظرتهم للإسلام يشوبها الارتياب والنقد، فكان الواجب يحتم عندئذ على حكماء المسلمين أن يعطوا الأولوية لهذا الأمر الخطير.. وهو ما فعله الشيخ الحكيمي، مقتصراً في بث علوم المعارج الروحية على ما تستوعبه صدور المريدين في الزوايا.

على أنه لم يتركنا خاليي الوفاض، فلقد كتب في الصحيفة عدداً من المقالات عن التصوف تبين طول باعه وعمق غوره وعلو شأنه، وواضح أن دافع كتابته تلك كانت بعد ضيق اعتراه من هجوم المناوئين للتصوف أو رداً على استفسارات بسبب تلك الكتابات المناوئة، ولقد اضطر إلى تلك الردود مكرها، وهو الذي ينادي دوماً بالبحث عن عوامل الاتفاق والتقريب، والابتعاد عما يفرق كلمة الأمة.

ويبدو انزعاج الشيخ من عبارته التي تطرق فيها إلى ذلك، حيث قال: «أصبح التصوف مضغة تلوكها ألسنة الناقدين على غير بصيرة، ومتناولاً يتناوله المتعنتون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، يقول فيه كل قائل حسب هواه ومشتهاه دون تفكير عميق ولا بحث دقيق، أو تدبر بإنصاف، هاجموه على غير استعداد، وحاربوه بدون عتاد ولا سلاح، وما دروا أنهم هجموا على الدين، وداسوا مقدساته الطاهرة، والدين سلام لا حرب فيه».

ولكن ما هو موضوع النقد والهجوم من هؤلاء على التصوف؟

يذكر الشيخ أمرين اثنين:

1- قالوا أن التصوف ليس من الدين، وما هو إلا دخيل عليه وشيء نكرة!!

2- قالوا ويقولون أن الصوفية وهم أكثر الناس أتباعاً وقفوا بأتباعهم وقوف الأحجار وانزووا إلى الزوايا وتركوا أممهم وشعوبهم تغط تحت كابوس الظلم.

تهمتان في غاية الخطورة، الأولى تخرج الصوفية من الدين، والثانية تنزع عنهم الوطنية والحمية والكرامة..

ينبري الشيخ لا ليدافع عن الصوفية فهم أسمى من أن يتهموا بمثل هذا.. وإنما يوضح ويبين ما لم يفهمه هؤلاء الناقدون، فإن «الذين يقدحون في التصوف.. إنما يقدحون في دينهم ويطعنون في عقيدتهم وهم لا يشعرون».

ونقدهم على غير بصيرة، وتناولهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير..

ولكن ما هو الرد على هؤلاء الناقدين؟

أولاً: التصوف والدين:

من الواضح أن هذا الاتهام ليس وليد وقته، فلكم ردده بعض الفقهاء خلال فترات الاحتكاك التي تحدث بينهم وبين الصوفية، شعوراً منهم بأن الدين هو ما وصل إليهم وعلموه، وأن الانتساب إليه إنما يكون بالدرس والمطالعة في علوم الشرع ولا غير ذلك، وما دروا أن القوم قد جدوا السُّرى، وحدا حاديهم مشوقا لهم الوصول إلى موطن الأصول.. وحين يتم المبتغي وينكشف الغطاء، تُصمتُ بعضاً منهم الدهشة، ويتيه بعضهم دلالاً، فيعودوا إلى أقوامهم بأخبار يستحثونهم بها على فتح الكنوز ويحدثونهم بما رأوا من العجب العُجاب.. فتثور عندئذ غيرة الفقهاء، ويظنون أن لو كان الأمر صحيحاً لوجدوه عندهم في متون الفقه وعلوم الظاهر التي لا يرون الدين إلا من منظارها.. ولما لم يكن كذلك يرون إذا أن ما قيل ليس من الدين بل هو خارج عنه.. فيقعون في المحذور الفقهي الذي يدّعون حمل رايته «فإن من كفّر مسلماً فقد كفر» والعياذ بالله..

التصوف هو الدين

هنا ينبههم الشيخ إلى أن هجومهم هذا إنما هو هجوم على الدين وهم لا يشعرون.. أما التصوف فليس إلا الدين، «وأن من أراد أن يفرق بين الدين والتصوف أو بين الحقيقة والشريعة فإنما هو جاهل في دينه، غبي لا علم له ولا معرفة لديه في شيء»، ويقول: «إذا ما أردت أن أذكر التصوف فإنما أذكر الدين الذي لا أراه إلا التصوف. والتصوف هو القاعدة الأساسية في الدين. إنه ثمرة الشريعة وعصارتها، وهو روح الدين ولبه».

ولكن التصوف يقتضي العزلة والخلوة والأذكار ولا يرتكز على المطالعات والقراءات، كما أن الكلام الذي يتحدث به الصوفية عن الوصول والوجود والشهود والمقامات وما إلى ذلك كلام كله من الرموز، ثم إنه يعرض من طرف آخر بالفقهاء، أصحاب الدرس والكتاب حين يدعي الصوفية بعلو مقاماتهم عنهم مع أن كثيراً من هؤلاء الصوفية لم يصلوا إلى عشر ما لدى الفقهاء من فقه، وما لدى النحويين من نحو.. وغيرهم.

يتحدث الشيخ عن دوافع تستوجب سلوك المسلك الصوفي.. إن خطأ الفقهاء أو عامة الناس وقوفهم في الدرجات والمراتب الدينية الأولى، في حين عمل الصوفية على إعطاء كل مرتبة حقها دون التوقف عندها، وسعوا للوصول إلى نهاية الطريق والفوز بحقيقة التوحيد الذي لا يظفر به إلا الخواص دون التوقف عند عقيدة العوام، وهم مع كل ذلك لا ينكرون علو قدر الفقهاء في فقههم وأصحاب العلوم الأخرى كل في مجاله، بل يعتقدون أن من أوجب الواجبات عليهم التضلع بالعلوم الأخرى دينية كانت أو طبيعية.. ويعتبرون ذلك واجباً شرعياً يسري على كافة العلوم ويقع على جميع المسلمين لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، ولم يخصص العلم بمجال معين، بل جعل بابه مفتوحاً على مصراعيه لتلقي سائر العلوم.. وفي هذا العصر يعتبر تعلم العلوم الحديثة واجباً وجوباً حتمياً على المسلمين، بل والتفوق فيها، فبها يحفظون للإسلام شوكته وللمسلمين عزتهم، وبها يذودون عن الأعراض والأموال والأوطان، ويصونون الحرية والكرامة لأنفسهم، ولكن الأولوية في نظرهم معرفة الله، فإذا تحقق لهم ذلك ورشفوا من كؤوس الوصال قاموا بواجباتهم على يقين وبصيرة..

أما الحديث عن المقامات والأحوال والوجود والشهود فهو أمر طبيعي أن يتحدث كل أمرئ عن علومه، فكما لا نستغرب من الفقهاء أحاديثهم عن اجتهاداتهم الفقهية، لا ننكر على الصوفية حديثهم عن هذه الأمور الكشفية والتي ليس محلها علوم الفقه وإنما مصدرها الذوق والكشف والشهود، ولا يعيب عليهم وجود مصطلحات خاصة بهم.. فإن لكل علم مصطلحاته الخاصة به، وهم هنا كغيرهم.. إن المنطق يستلزم ممن لم يذقها الولوج في عتباتها وليس إنكار أصحابها..

وهكذا نجد التصوف يحث على تعلم العلوم بجميع أنواعها.. وهو فقط ينظم المسار ويعطي الأولويات..

الدواعي الموجبة لنهج التصوف

من كتابات الشيخ يمكننا تلمس دواعٍ ثلاثة تدعو جميعها -أو بعضها- إلى ضرورة السير وفق نهج التصوف باعتباره المدخل الصحيح الذي يحقق العبودية لله وحده وخلافة الإنسان في الأرض.. وهذه الدواعي هي:

1- أن طبيعة الدين اقتضت التدرج وفقاً لمراتب تتطلب التحقق بها كلها.

2- أنه طريق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهم القدوة لكافة المؤمنين.

3- إنه المدخل الوحيد للوصول إلى المعرفة الحقة والعلم اليقيني.

وسنتابع هذه الدواعي الثلاث كما يلي:

1- التحقق بما اقتضته مراتب الدين:

اقتضت الإرادة الإلهية وجود ثلاث مراتب في الدين هي الإسلام والإيمان والإحسان، دل على ذلك الحديث المشهور بين جبريل عليه السلام ونبينا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام حين سئل عن الإسلام والإيمان فأخبر بهما وعندما سئل عن الإحسان أجاب: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وتبين من ذلك أن أياً من أتباع الدين الإسلامي إنما هو في واحد من المقامات الثلاثة، على أن تحققه في مقامه لا يزيل عنه صفة استحقاقه للمقام الذي يسبقه دون العكس، يدل على هذا خطاب الحق في سورة الحجرات: «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم».. فتكون هذه المراتب:

● مرتبة الإسلام: تخص الذين يؤدون الشعائر دون اشتراط عقيدي.

● مرتبة الإيمان: تخص الذين حصلت لهم مرتبة الإسلام وزادوا عليها اعتقاداً إيمانياً قلبياً بالله وملائكته وكتبه ورسله.. إلخ.

● مرتبة الإحسان: وتخص الذين حصلت لهم المرتبتان السابقتان وأضيف إليهما رتبة المشاهدة.

وهكذا نجد أن المرتبة الأولى وظيفتها العمل، والمرتبة الثانية وظيفتها التصديق والاعتقاد ومحل ذلك القلب، وأداته الرئيسية الإيمان الغيبي من خلال الدليل والبرهان.. في حين أن المرتبة الثالثة تتعلق بـ«كمال العقيدة» وذلك «بشهود الإله المعتقد به، والمعبود بحق في الوجود، ومعرفته معرفة حقيقية شهوداً وعياناً لا مجرد الدليل والبرهان».. هذه هي مرتبة الإحسان التي ينبغي أن تشرئب إليها أعناق المؤمنين لتحصل لهم كمالات المراتب الثلاث التي يتكون الدين من مجموعها..

وهذا هو دين الصوفية.. وتتحقق بهذا المقام «معرفة الله في ذاته وصفاته وأفعاله معرفة تقطع جميع الأسباب والعلل»، ودوام مراقبته، والخوف منه، وسكون النفس إليه، واستعمال الجوارح في طاعته، وامتلاء القلب بحبه، وشهود كبريائه وعظمته».

لا مجال هنا للتفريق بين الدين والتصوف ومن أراد أن يفرق بينهما «أو بين الحقيقة والشريعة فإنما هو جاهل في دينه، غبي لا علم له ولا معرفة لديه في شيء».

2- الاقتداء بالأنبياء والرسل:

إننا إذا أمعنا النظرفي نبينا محمد وإخوانه من الأنبياء والمرسلين نجدهم أنهم خلقوا أنبياء موحدين بالله، لايشكون في الله ربهم، ولا يعبدون إلها سواه، ووحي السماء دائماً ينزل عليهم، والملائكة على الدوام ترافقهم، والعقيدة بوحدانية الله لا يشكون ولا يرتابون في صدقها أبدا.. ولكنهم مع ذلك يروضون أنفسهم ويجتهدون في الانقطاع والانفراد والعزلة عن الناس مستأنسين بربهم لعلمهم أن وراء تلك العقيدة العامة عقيدة خاصة تنمحي دونها ثلجة الوجود، وتنطمس فيها الحدود والقيود، وينطوي وجود العابد بوجود المعبود، وهذا ما يسمى في اصطلاح العارفين وحدة الشهود، وهو التوحيد الخاص المأخوذ بطريق المكاشفة، ذوقاً وحالاً، شهوداً وعياناً.

من هنا يتضح لنا جليا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكتفوا بما وهبوا من مقام النبوة والرسالة، دون أن ينقطعوا إلى الله انقطاعاً كلياً ليكتشفوا على ضوئه سر مقام الإحسان، فيطلعون على العجب العجاب، ويصلون الى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على خاطر أحد غيرهم، «فكان قاب قوسين أو أدنى»، «ما كذب الفؤاد ما رأى»، «ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى».

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يستطيعون إقناع الناس في اعتناق عقيدة سطحية وصلت إليهم بطريق الإلهام أولاً ثم بطريق الوحي وواسطة الملك ثانياً، كما لا يقدرون على حل مشاكل العقائد الباطلة التي تمكنت من قلوب أناس اتخذوا إلههم هواهم واصطنعوا لهم بأيديهم ومن عند أنفسهم آلهة من الأحجار فاعتقدوها وخضعوا لها وعبدوها وقدسوها ثم تعصبوا لها تعصباً أعمى. وهذا التعصب لعمر الحق لا تزيله العقيدة العامة وهي: أقول لكم عما قيل لي. ولكن لابد للرسل من عقيدة يعرفونها بطريق الذوق والكشف والعيان وليكونوا علي بينة وبصيرة وتكون لهم الحجة البالغة.. بيد أن هذه العقيدة لا تأتي إليهم بواسطة الملك أو الإلهام ولا من أي طريقة أخرى اللهم إلا من طريق الانعزال والانقطاع إلى الله في غار حراء، وفي جبل الطور، وفي جبل الزيتون.. الذي استعار له الصوفية استعارة مجازية فسموه الخلوة.

وبواسطة تلك الفائدة التي حصلت للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من خلواتهم ورياضاتهم استطاعوا إقناع المتمردين من عبدة الأوثان وأقاموا حجة الله عليهم بعد أن أوضحوا لهم الدليل وأفحموهم بالحجة وإظهار المعجزة وخرق العادة بما أوتوا من قوة التنوير وبلاغة التعبير، وإبراز حكمة قلوبهم وعقولهم النيرة إلى جانب حكمة الوحي فأسندت الحجة إلى الحجة، وأفحم الخصم، وارتجت لسانه: «ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين»، كانت حجة إبراهيم قوية مفحمة لأنه تكلم عن علم وكشف وشهود ومعرفة خارقة.

ومن هذه العقيدة والمعرفة النادرة أخذ الصوفية تصوفهم، ومن هذا الطريق سلكوا برياضتهم، ومن بحر تلك الرسالة اغترفوا ينبوع مشربهم، فقالوا نحن صوفية».